من تراب الطريق (٤٢٦)

الروح القومية ! (*) بين الأمس واليوم

ليس منا ، أو ليس من أنصاف المتعلمين ، من لم يقرأ ، أو يسمع على الأقل عن معركة رشيد ، وعن انتصار المصريين الباهر فى صد الغزو الأجنبى عن المدينة الباسلة .. قرأنا كثيرًا عن الخلاف الدائر حول وزن آثار الحملة الفرنسية على مصر ، بين متوقف عند الغزو وهدفه الاستعمارى ، وبين قافز إلى الأثر الثقافى أو النقلة المعرفية التى تسبب فيها احتكاك المصريين بالغزاة الفرنسيين .

بيد أن أحدًا لم يختلف كثيرا فى دوافع الغزوة ، ولا الأهداف الاستعمارية التى كانت وراءها ، واتفقوا على أن مصر كانت مستهدفة بين الفرنسيين والإنجليز لأغراض يطول شرحها وليست مقصدى هنا ، وإنما أردت أن أتوقف عند الروح القومية والنضال الوطنى الذى واجه به المصريون غزو الفرنسيين ثم الإنجليز من بعدهم . فما إن اضطر الفرنسيون إلى النزوح عن مصر ، حتى بدأت إنجلترا لتنفيذ مخططها ـ شاملًا احتلال مصر ـ لفرض نفوذها على طرق المواصلات البحرية إلى الهند . لم تصبر انجلترا طويلا على المناورات الدبلوماسية ، فدبرت لشن حملة فريزر عام ١٨٠٧ ، معتمدة على ضعف الدولة العثمانية من ناحية ، وعلى من تآمروا معها من المماليك من ناحية أخرى ، ولكن الذى غفلت عنه وأغفلته انجلترا هو وزن الروح

(*) المال ٢٩/ ٣/ ٢٠١٠ .

الوطنية المصرية وزنها الصحيح ..وهى القوة التى أفشلت فى النهاية حملة الغزو الإنجليزى بقيادة فريزر !

بدا للإنجليز فى البداية أنهم فى نزهة ، بعد استيلائهم السريع ـ الذى أسكرهم ـ على مدينة الإسكندرية بالتواطؤ مع محافظها العثمانى ، وبدا الطريق أمامهم مفتوحًا إلى قلب مصر ، فمحمد على مشغول بقتال فلول المماليك فى الصعيد ، وبدت الدلتا خالية أمامهم من حامية تحميها أو يعتد بها فى حمايتها ، فتحرك الجنرال ديكوب على رأس قوة من ثلاثة آلاف مقاتل لاحتلال رشيد ، ووصلوا إلى مشارفها فى ٣١ مارس ، ولم يكن بها سوى حامية من ستمائة جندى بأسلحة بدائية ، ولكنهم كانوا بقيادة المحافظ على بك الشجاع ، فأبى هذا البطل وأبت حاميته ضئيلة العدد تسليم المدينة للغزاة الإنجليز . يحكى الجبرتى كيف طفقوا يقيمون المتاريس ، ويحصنون المواقع ، ويدبرون المؤن والسلاح ، ويحكمون الاستعدادات للدفاع عن المدينة .. وكيف لجأوا بالحيلة لخداع الإنجليز .. فتركوهم يدخلون المدينة دون صد أو مقاومة ظاهرة ، حتى جعلوا يجوبون فى طرقاتها ، ظانين أن أهل المدينة قد آثروا التسليم ، فلما اطمأن الإنجليز إلى استتباب الأمر ، وانتشروا جوالين فى الطرقات والأسواق ، فاجأهم أهل المدينة وحاميتها بقيادة على بك الشجاع بهجوم انفتحت عليهم حممه من كل جانب ، ومن كل شارع وركن وبيت ، فلم تمض سوى ساعات إلاّ وتبعثرت الحملة الإنجليزية بين قتيل وجريح ، أو هارب ، أما الأسرى فقد جُمعوا وحُملوا إلى القاهرة لتجاب بهم شوارعها !

عاود الإنجليز الكرة ، وأعدوا حملة أقوى وأكثر عددًا وعتادا وجهوها مرة ثانية فى أبريل من نفس العام ١٨٠٧ .. ولكنها لاقت أشد مما لاقته الحملة

السابقة ، وتصدى لها أهالى رشيد وحاميتها فى معركة طويلة طاحنة ، انقشعت بدورها عن فلول إنجليزية تبعثرت أمام انتصار وطنى أكبر وأعرض .. واللافت أن النصرين المتتاليين جريا على خلاف كل الموازين العسكرية ، ورغم التخاذل العثمانى ، والتواطؤ المملوكى .

تزاحمت صور هذا النصر القومى على مخيلتى ، وأنا أتابع الآن التخاذل العربى أمام الحرب التى أعلنتها إسرائيل إعلانا لا تخطئه عين .. فماذا يبقى للسلام الموهوم إزاء ضم الحرم الإبراهيمى لإبراهيم الخليل عليه السلام ، ومسجد الصحابى الجليل بلال بن رباح مؤذن الرسول المصطفى ﷺ - إلى التراث اليهودى ، وماذا يبقى للسلام إزاء انتهاك حرمات المسجد الأقصى كل يوم ، وحفر الأنفاق التى وصلت إلى تقويض الأساسات بأسفل المسجد وأسفل قبة الصخرة ، لينهار المسجد لدى أقل هزة ويصبح أثرًا بعد عين ، وماذا بقى للسلام مع المستوطنات الجارى بناؤها فى القدس الشرقية على قدم وساق فى عملية تهويد لا يخطئها أعمى أو بصير ، وماذا يبقى للسلام وفى الخطة ٥٠ ألف مستوطنة جديدة فى الضفة الغربية ، وماذا يبقى للسلام أمام الجدار العازل والغارات الجارى شنها من وقت لآخر على قطاع غزة ، وماذا يبقى للسلام مع تغليق المعابر وحصار الفلسطينيين حتى الموت جوعًا وعطشًا ومرضًا .. وماذا يبقى للسلام ونتن ياهو يرد على أمريكا الصديقة (؟!) بأن القدس الشرقية لا يجرى فيها استيطان وإنما هى عاصمة إسرائيل الصهيونية .. وماذا يبقى للسلام إزاء الصلف والغطرسة الإسرائيلية التى لم تعد تتوقف عند أى حد أو اعتبار .. وماذا يبقى للسلام وترسانة إسرائيل النووية قد تورمت وتهدد المنطقة والعالم دون أن ترى أمريكا فى تورمها وتهديدها بأسًا !!

ماذا يبقى للسلام إلاّ إذا كنا جميعا قد بتنا نُغَنِّى ما كان يغنيه عبد الوهاب من عشرات السنين وإن كان عن معبد الكرنك : أنا من ضَيَّع فى الأوهام عمره : نسى التاريخ أو أُنسى ذكره ؟!

يبدو لى أننا قد نسينا التاريخ والجغرافيا أيضا ، ولم نعد نرى ما يتربص بمصيرنا فى الحاضر المؤسف الذى بات يطبق علينا من كل جانب .

الفارق أن الروح القومية قد تبعثرت وباتت للأسف ـ هى الأخرى ـ أثرًا بعد عين !!!

*****